الترغيب في التواضع في الحج
ولبس الدون من الثياب اقتداءً بالأنبياء عليهم السلام

□ الترغيب في التواضع في الحج □
ولبس الدون من الثياب اقتداءً بالأنبياء عليهم السلام

لقد بوب الإمام البخاري باب في صحيحه سماه « باب الحج على الرحل » ، والرحل هو للبعير كالسرج للفرس ، قال ابن حجر في [الفتح] (٦ /٤٤٥) : « أشار بهذا إلى أن التقشف أفضل من الترفه » .

عن ثمامة بن عبد الله بن أنس قال : حجّ أنس على رحل ، و لم يكن شحيحًا ، وحدث أن رسول الله ﷺ « حج على رحل وكانت زاملته » رواه البخاري .

الزاملة : البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع ، من الزمل وهو الحمل .

ومعنى: «وكانت زاملته» أي: الراحلة التي ركبها، والمراد أنه لم تكن معه زاملة تحمل طعامه ومتاعه، بل كان محمولا معه على راحلته وكانت هي الراحلة والزاملة.

واقتدى أنس بالنبي ﷺ فحج على رحل و لم يكن شحيحا إشارة إلى أنه فعل ذلك تواضعا واتباعا لا عن قلة وبخل .

عن ابن عباس قال : انطلقنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، فلما أتينا على وادي الأزرق قال « أي واد هذا ؟ » قالوا : وادي الأزرق ، قال : « كأنما أنظر إلى موسى ينعتُ عن طوله وشعره ولونه واضعا أصبعيه في أذنيه ، له جؤار إلى الله بالتلبية مارا بهذا الوادي » ، ثم نفذنا الوادي حتى أتينا ثنية هَرْشَى ، قال : « أي ثنية هذه ؟ » فقلنا : ثنية هرشى ، قال : « كأنما أنظر إلى يونس على ناقة حمراء ، خطام الناقة خُلْبَة ، عليه جبه له من صوف يُهِلُّ نهارا بهذه الثنية ملبيا »[1].

(١) إسناده صحيح : رواه ابن حبان واللفظ له، وابن ماجة، وابن خزيمة عن ابن عباس،=

عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد مر بالروحاء سبعون نبيا فيهم نبي الله موسى حفاة عليهم العباء يؤمون البيت العتيق »[(١)].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الحاج الشعث التَّفل »[(٢)] « الشعث » مصدر الأشعث وهو المغبر الرأس ، والتفل الذي ترك استعمال الطيب من التفل وهو الريح الكريهة ، من تفل الشيء من فيه إذا رماه متكرها له ، يعني من هذه صفته فهو الحاج حقيقة الحج المقبول فاللائق به كونه أشعث أغبر رث الهيئة غير متزين ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر فيكتب من المتكبرين المترهفين ويخرج من حزب الصالحين »[(٣)].

قال بعض التابعين : رب محرم يقول لبيـك اللهم لبيك ، فيقول الله: لا لبيك ولا سعديك هذا مردود عليك ، قيل له لم ؟ قال : لعله اشترى ناقة بخمسمائة درهم ورحلا بمائتي درهم ومفرشا بكذا وكذا ، ثم ركب ناقته ، ورجّل رأسه ، ونظر في عطفيه فذلك الذي يرد عليه .

ومن هنا استحب للحاج أن يكون شعثا أغبر ، وفي حديث المباهاة يوم عرفة أن الله تعالى يقول للملائكة انظروا إلى عبادي أتوني شعثا غبرا ضاحين اشهدوا أني قد غفرت لهم .

= وأخرجه أحمد ومسلم .

الجؤار : الابتهال . الخلبة : مفرد الخلب وهو الليف .

هرشى : جبل على طريق الشام والمدينة قريب من الجحفة يرى منها البحر ، ولها طريقان ، فكل من سلك واحدًا منها؛ أفضى به إلى موضع واحد ولذلك قال الشاعر :

خُذا أنفَ هرْشى أوقفاها فإنما ... كلَا جانبي هرشى لهن طريق .

(١) رواه أبو يعلى والطبراني ولا بأس بإسناده في المتابعات .

(٢) حسن : أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، وصححه السيوطي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٦٢ .

(٣) فيض القدير ٣ /٤٠١ -٤٠٢ .

قال عمر يوما وهو بطريق مكة : تشعثون وتغبرون وتتفلون وتضحون لا تريدون بذلك شيئا من عرض الدنيا ، ما نعلم سفرا خيرا من هذا. يعني: الحج.

وقال ابن عمر لرجل رآه قد استظل في إحرامه « اضح لمن أحرمت له » أي أبرز للضحى وهو حر الشمس .

أتاك الوافدون إليكَ شُعْثاً   يسوقون المقلـــدة الصوافِ
فكم من قاصدٍ للرب رَغَباً   ورهباً بين منتعل وحـاف[1]

○ فضـل مكـــة ○

اعلم يا أخي أن الله تعالى جعل لمكة في الفضل مزايا ، وخصهـا ببيته الذي هو قبلة للبرايا ، وبحجه الذنب مغفـور ، وبالطواف به تكثر الأجور .

اختار الله خير الأماكن والبلاد وأشرفها وهي البلد الحرام ، وجعلها مناسك لعباده ، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق ، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين ، كاشفي رؤوسهم ، متجردين عن لباس أهل الدنيا .

وجعلها حراما آمنا :

- قال تعالى : ﴿ **إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ [النمل :٩١] .
- وقال تعالى : ﴿ **أو لم نمكن لهم حرما ءامنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ [القصص :٥٧] .
- وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا ءامنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلًا ثم**

(١) لطائف المعارف ٢٥١ – ٢٥٢

اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ [البقرة :١٢٦] .

– وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد ءامنًا واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ [إبراهيم :٣٥] .

جعل الله عرصاتها مناسك لعباده ، فرض عليهم قصدها ، وجعل ذلك آكد فروض الإسلام ، وأقسم بها في موضعين من كتابه العزيز ، وسمى سورة من كتابه باسمها ، فقال تعالى : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ [التين :٣] ، وقال تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ [البلد :١] فالله تعالى خلع عليها عظمة وحرمة .. فهي كريمة ويزيدها كرما وشرفا حال كون رسولنا ﷺ فيها حالّا مقيما .

هنا السموات تبدو قرب طالبها ... هنا الرحاب فضاء حين يلتمس
هنا النبوة تحيا في أماكنها ... لا الطيب يبلى ولا الأصداء تندرس
هنا الصحابة من حول النبي هنا ... أبو هريرة يروي عنه أو أنس

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها ، والطواف بالبيت الذي فيها غيرها ، وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه ، وتحط الخطايا والأوزار غير حجرها الأسود ، وركنها اليماني .

وثبت أن الصلاة في مسجدها الحرام بمائة ألف صلاة .

عن عبد الله بن الزبير ، عن النبي ﷺ أنه قال : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة »(١).

ومكة هي أحب بلاد الله إلى الله ورسوله ﷺ :

عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال : رأيت رسول الله ﷺ على راحلته واقفا بالحَزْوَرَة يقول : « والله إنكِ لخير أرض الله ، وأحب أرض الله

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، وصححه ابن حبان، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط، والشيخ عبد القادر الأرناؤوط .

إلى الله ، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت »[1].

وهي الحبيبة إلى قلب نبينا ﷺ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أطيبك من بلدة وأحبك إليّ ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك »[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال : « أما والله لأُخرج منك ، وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إليّ وأكرمه على الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت »[3].

ولقد حرّمها الله يوم خلق السمٰوات والأرض :

قال ﷺ : « إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي قط إلا ساعة من الدهر ، لا يُنفَّر صيدها ، ولا يعضد شوكها ، ولا يختلى خلاها[4]، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد »[5].

وقال ﷺ : « إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىءٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ، ولا يعضد بها شجرة ، فإنْ أحد

(١) إسناده صحيح على شرط مسلم : رواه ابن حبان، واللفظ له ، وابن ماجة ، والترمذي ، والنسائي في الكبرى ، والحاكم في المستدرك ، وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وأحمد . وصححه شعيب الأرناؤوط في تحقيق [الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان] حديث رقم ٣٧٠٨ .
الحزورة : الرابية الصغيرة ، وهي موضع في مكة .

(٢) حديث صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه ، والطبراني في الكبير ، والترمذي وقال حديث حسن غريب ، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي .

(٣) قال الهيثمي : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات .

(٤) النبات الرطب الرقيق .

(٥) رواه البخاري، والطبراني في الكبير، والبيهقي في سننه من رواية ابن عباس .

ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها ، فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ، ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي ساعة من نهار ، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلّغ الشاهد الغائب »(١).

وقال ﷺ : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلّط عليها رسوله ﷺ والمؤمنين ، ألا فإنها لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، ألا وإنها حلّت لي ساعة من نهار ، ألا وإنها ساعتي هذه حرام ، لا يختلى شوكها ، ولا يعضد شجرها(٢)، ولا يلتقط ساقطها إلا لمنشد ، ومن قُتل له قتيل فهو بخير النَّظرين ، إما أنْ يعقل ، وإما أن يُقاد أهل القتيل » ، فقام رجل من اليمن يقال له أبو شاه ، فقال : يا رسول الله ، اكتبوا لي ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتبوا لأبي شاه » ثم قام العباس فقال : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنا نجعله في قبورنا ، وفي بيوتنا ، فقال رسول الله ﷺ : « إلا الإذخر »(٣).

وعن رسول الله ﷺ : « إن إبراهيم حرّم مكة ، وإني حرمت ما بين لابتيها - يريد المدينة - »(٤).

وعن رسول الله ﷺ: « إن إبراهيم حرّم مكة، ودعا لها، وإني حرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مُدِّها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة »(٥).

وليس في الأحاديث تعارض بين « إن إبراهيم حرم مكة » و « إن الله حرّم هذا البلد » ؛ لأن معنى الأول أن إبراهيم أعلم الناس بذلك ، والثاني ما سبق

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأحمد في مسنده عن أبي شريح .

(٢) عند مسلم: « لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده » .

(٣) أخرجه البخاري ، وأحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة ، وابن حبان واللفظ له، وعند البخاري قلت للأوزاعي : ما قوله: « اكتبوا لأبي شاه ؟ » قال : هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ .

(٤) رواه مسلم، وأحمد عن رافع بن خديج .

(٥) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن عبد الله بن زيد .

من تقدير الله .

ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم ، فليس على وجه الأرض قبلة غيرها .

ومن خواصّها أيضا أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض .

ومما يدل على تفضيلها : أن الله تعالى أخبر أنها أم القرى ، فالقرى كلها تبع لها ، وفرع عليها .

وهي أصل القرى ، فيجب ألا يكون لها في القرى عديل ، كما أن الفاتحة أم الكتاب ليس لها في الكتب الإلهية عديل .

ومن خصائصها : أنه لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بإحرام ، وهذه خاصية لا يشاركها فيها شيء من البلاد ، وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ومن خواصها أنه يعاقب فيها على الهم بالسيئات وإن لم يفعلها ، قال تعالى : ﴿ **ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم** ﴾ .

ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيها ، لا كمياتها ، فإن السيئة جزاؤها سيئة ، لكن سيئة كبيرة ، وجزاؤها مثلها ، وصغيرة جزاؤها مثلها ، فالسيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض ، ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه ، فهذا فصل النزاع في تضعيف السيئات . والله أعلم[1] .

عن عبد الله بن حبشي قال : قال رسول الله ﷺ : « من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النار » – يعني من سدر الحرم –[2] .

(١) زاد المعاد ١ /٤٨ – ٥١ .

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أبو داود خلا قوله : « من سدر الحرم » ، ورواه=

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : أشهد بالله لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحلها ويحل به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها »[1].

أتى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ابن الزبير رضي الله عنه فقال : يا ابن الزبير ، إياك والإلحاد في حرم الله تبارك وتعالى ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه سيلحد فيه رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت » قال : انظر لا تكنه[2].

وقال ﷺ : « الكبائر تسع : أعظمهن إشراك بالله ، وقتل بغير حق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، والفرار يوم الزحف ، وعقوق الوالدين ، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا »[3].

وقد ظهر سرُّ هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفئدة ، وهوي القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين ، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد ، فهو الأولى بقول القائل :

مَحَاسِنُهُ هَيُولَى كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجـال

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس، أي يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرًا، بل كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له اشتياقًا.

لا يرجع الطَّرْف عنها حين ينظرها حتى يعود إليها الطَّرْف مشتاقًا

= الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات .

(١) قال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات .

(٣) حسن : رواه أبو داود ، والنسائي عن عمير، والطحاوي، والحاكم، والبيهقي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٨١ .

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح ، وكم أنفق في حبها من الأموال والأرواح ، ورضي المحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان ، مقدمًا بين يديه أنواع المخاوف والمتالف، والمعاطف والمشاق، وهو يستلذ ذلك كله، ويستطيبه، ويراه لو ظهر سلطان المحبة في قلبه أطيب من نعم المتحلية وترفهم ولذاتهم.

وليس محبًا مَنْ يَعُدُّ شقاءه عذابًا إذا ما كان يرضَى حبيبُه

حج أحد الصالحين فلما رأى مكة قال :

أبطحاء مكة هذا الذي أراه عيانًا وهذا أنا ؟!

ثم غشي عليه فلما أفاق قال :

هذه دارهم وأنت محب ما بقاء الدموع في الآماق

يقول علي الجارم :

يكاد إذا مرّ الحجاز بذكره وجيرته من صدره يَتَوثَّبُ
بلاد بها الرحمن ألقى ضياءه على لابتيها والعوالم غيهبُ
يجلّلها قدس من الله سابغ وينفُحَهَا نشر من الخلد طيّبُ
إذا نسب الناس البلاد رأيتها إلى جنة الفردوس تُعزى وتُنْسبُ
وإن نضبت أنهارها فبحسبها من الدين نهر للهدى ليس ينضبُ
يفيض على الأقطار يُمْناً ورحمة ويزأر في أذن العتاة ويصخبُ
تفجّرَ من نبع النبوة ماؤه له الحق وِرْدٌ والسماحة مشربُ

○ لطيفــة ○

● **من أسمـاء مكــة :**

– بكة : سميت بذلك لأنها تُبك أعناق الظلمة والجبابرة ، بمعنى يُبكون بها ويخضعون وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أي : يزدحمون .

قال قتادة : إن الله بَكّ به الناس جميعا ، فيصلي النساء أمام الرجال ، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها .

- البيت العتيق .
- البيت الحرام .
- البلد الأمين .
- المأمون .
- أم رُحْم : يعني : أنها أصل الرحمة .
- أم القرى ، وصلاح ، والعرش على وزن بدر .
- والقادس : لأنها تطهر من الذنوب
- والمقدسة .
- والناسة : بالنون ، والنساسة : سميت بذلك لقلة الماء بها إذْ ذَاك ؛ أو لأن من بغى بها أخرج منها .
- الباسة والبساسة .
- والحاطمة .
- والرأس ، و كُوثى ، والبلدة ، والبَنِية ، والكعبة ، والقرية ، ومعاد ، والنابية ، والمكتان ، والمعطشة ، وبرق ، وبساق » . انتهى [العقد الفريد وابن كثير] (٢ /٦٤) .